أثر أفعال الكلام في توجيه دلالة النص الأدبي.

الأستاذ: عبد الحليم معزوز المركز الجامعي لميلة.

ملخص البحث:

انتقل البحث اللساني من نمط لسانيات الجملة إلى بنية أكبر أو - فلنقل كيان أكبر- وهو النص على يد ثلة من اللسانيين الغربيين ، ومن بعدهم مجموعة من اللسانيين العرب، وانتقل معه مجال البحث اللساني، فبعد أن اقتصر على بنية التراكيب، والنظر في علاقات العناصر وطبيعة القواعد النحوية التي تحكم كل تركيب على حدى، وقد تجلى ذلك من خلال جهود أب اللسانيات الحديثة دو سوسير، أصبح الاهتمام متوجها أكثر نحو النظر في علاقات أكبر وأكثر عمقا وهي العلاقات النصية أو السياقية، أو ما يعرف في حقل الدراسات اللغوية بلسانيات النص.

فبعد أن كان النظر مقتصرا على شكل الخطاب أو العلاقات الداخلية التي تربط بين عناصر الجمل المكونة له، توسعت دائرة تناول النص الأدبي لتشمل الظواهر المحيطة بإنتاجه، ومن خلال ذلك محاولة معالجة الإجراءات اللغوية وحتى العوامل غير اللغوية الداخلة في توجيه دلالة خطاب معين. فكان من ذلك أن استجدت مناهج تعتني كل منها بطريقة خاصة وزاوية محددة في تناول النص الأدبي، كالمنهج البنيوي، والمنهج الأسلوبي، والمنهج السيميائي، وكذلك المنهج التداولي. ويهدف الدارس للنص الأدبي، وفق أحد هذه المناهج، إلى الكشف عن الإجراءات التي أحاطت أنشاءه وجعلته بذلك متميزا عن باقي النتاجات الأدبية وحتى عن النصوص التي تشاركه الموضوع والفكرة.

ومن هنا جاء بحثنا ليسلط الضوء على أحد الإجراءات النصية، وهي الأفعال الكلامية، من خلال محاولة تفسير أثرها في بناء النص الأدبي بناءً خاصا وتحديد دلالاته، ومن ثمة توجيه هذه الدلالة وحتى الانزياح بها أحيانا اعتمادا على غرض منشئ الخطاب الأدبي، ويكون ذلك قصد تحديد السياق العام له.

الكلمات المفاتيح: أفعال الكلام، النص الأدبي، السياق، لسانيات النص، البنية.

Title of research: Meaningful speech acts in meaningful texts.

Abstract:

The linguist research on the text has been through significant alterations, led primarily by the West; pioneered by DE SAUSSURE, before are then adopted by some Arabic linguists.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Studies were solely going for the syntagmatic structures as well as for the nature of the radical and grammatical element, in opposition to the maximum current focus on textualization and coherence relationships simply known as the text linguistics.

The text used to be deemed a discourse-limited issue, yet contradictory linguistic theories. Have gradually enlarged on prominent phenomena governing its creation, and thereby resulting in approaches; pragmatic, structural, stylistics, and semiotics, which the general reader adheres to one of them in contextualizing his textual analysis.

Herewith, highlighted are speech acts into forming, guiding through and determining the general context of a text.

Key words: speech acts, text, context, text linguistics, structure.

يعد الانتقال من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص حلقة جد هامة وعلامة فارقة في حقل الدراسات اللغوية الحديثة، فقد انتقل معها مجال الاهتمام من العلاقات التركيبية الداخلية إلى محاولة ربط النص بالظروف التي أحاطت بمنشئه، من أجل تفسير هذا الخطاب من زوايا متعددة، وكان ذلك خاصة بعد إعادة الاعتبار للمعنى، والسياق عامة على يد ثلة من اللسانيين الغربيين، أهمهم رواد المدرسة الإنجليزية بزعامة فيرث. ومن هنا رأى بعض الدارسين أن المعنى يتفرع إلى ثلاثة مستويات: المعنى اللغوي؛ وهو المأخوذ من دلالة الكلمات والضمائم والجمل، ومعنى الكلام؛ أو المعنى السياقي، ثم المعنى الكامن بالقوة؛ وهو معنى المتكلم[1].

وتجلى هذا الاهتمام بهذه الظروف أكثر بعد ظهور التداولية -بمفهومها الحديث- على يد الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس Charles Morris منذ سنة 1938م، خاصة بعد استعمالها بمعناها المعاصر في السبعينات من القرن الماضي، ولكن دائما على يد فلاسفة اللغة، حيث طور هذا المفهوم كل من أوستن Austin, سيرل Searle, وغرايس Grice، الذين كان اهتمامهم منصبا حول الطريقة التي بها يتمكن الإنسان من توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل لرسالة ما إلى مستقبل وكذا طريقة تفسيرها[2]. فهي بذلك تسعى إلى الإجابة عن عدد من التساؤلات التي لم تتمكن المدارس اللسانية –وخاصة البنوية- من الإجابة عنها، وتكمن أهم هذه التساؤلات في النمط التالي: من يتكلم؟ من يقع عليه الكلام؟ ماذا نفعل عندما نتكلم؟ ما قيود الحديث؟ أين يكمن الغموض في الكلام؟ لماذا التلميح أبلغ من التصريح؟ متى يكون الكلام إقناعا.... وغيرها[3].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1- وظيفة التداولية:

إن اهتمام التداولية -إضافة إلى ما يكون النص من الداخل- بالجوانب الخارجة عن بنية النص في تناوله، جعلها تسعى إلى الكشف عن العلاقة التي تربط النص بكل من منشئه وقارئه، وكذا طبيعة التفاعل التي تنشأ بينهما من خلال الوسائل التبليغية التي يستعملها الأول من أجل التأثير في الثاني، أو التي يستعملها القارئ من أجل محاولة فهم النص في سياقه الذي نشأ فيه.

ولذلك فإن وظيفة التداولية، كما ذهبت أوركيوني تكمن في استخلاص العمليات التي تمكِّن الكلام من التجذر في إطاره الذي يشكل ثلاثية المرسل، المتلقي، والوضعية التبليغية. إن أي تحليل يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسياق الذي تؤول فيه الجملة[4].

وما يلاحظ على رأي أوركيوني أن مجال البحث في التداولية لا يتعدى مجرد النظر في النص وعلاقاته السياقية، إلى البحث في مختلف الوضعيات التبليغية التي يكون فيها منشئ الخطاب، فتعددت بذلك فروع التداولية وتمايز كل منها عن الأخرى، فظهرت التداولية الاجتماعية sociopragmatics، والتداولية اللغوية linguistic pragmatics التي تنطلق من جهة مقابلة للتداولية الاجتماعية فإن كانت الأخيرة تبدأ من السياق الاجتماعي وتنتهي إلى التركيب اللغوي، فالتداولية اللغوية تنطلق من التركيب اللغوي إلى السياق الاجتماعي الذي يستخدم فيه. ونجد أيضا التداولية التطبيقية applied pragmatics، وهي تعنى بحصر مشكلات التواصل ضمن المواقف المختلفة، خاصة تلك المتعلقة بمواقف اتصالية تنجر عنها نتائج خطيرة، ثم التداولية العامة general pragmatics، ويتم خلالها دراسة الأسس التي بها تستعمل اللغة استعمالا تواصليا[5].

2- تأثير السياق على التداولية:

من خلال اختلاف أنواع التداولية يبرز جليا دور السياق في تحديد أيٍّ من هذه الأنواع ينال إجماع التداوليين، فقد تعددت تعريفاتها من خلال النظر في علاقة المتكلم بالسياق الذي ينشأ فيه الخطاب، ومرد ذلك هو الاختلاف في إدراك السياق، فهناك من يحصر التداولية في جعلها أقوالا تتحول إلى أفعال اجتماعية بمجرد التلفظ بها، وهناك من يربطها بدراسة الآثار التي تظهر في عنصر الذاتية للخطاب، وهي نظرة متعلقة بتناول ضمائر الشخص ومبهمات الزمان والمكان، في حين هناك اتجاه ثالث ينظر في الجانب الضمني والتلميحي وكذا الحجاجي للكلام، فالسياق -حسب هذا الاتجاه- يفرض على المتكلم احترام مجموعة من "قوانين الخطاب" أثناء مخاطبته لغيره[6]؛ فملاحظة هذه الأنواع يبيّن الدور المفصلي للسياق في البحث التداولي، فهو المركز الذي تدور حوله الإجراءات التداولية. ومن هنا فإن جون ديبوا يرى بأن السياق هو "مجمل الشروط الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة، وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعلومات الشائعة بينهما"[7].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واهتمام الدارسين بعنصر السياق ضمن البحث التداولي جعلهم ينتبهون إلى الاختلافات التي تنجر عن درجة تدخل السياق في كل نظرية والذي يحدد مميزات كل منها، فاعتبر بذلك العنصر الأول الذي يُهتم به في تنظيم وهيكلة النظريات التداولية، ويعد الهولندي هانسون أول من جرب التوحيد بطريقة نظامية وتجزئة المكونات التي تطورت لحد الآن بطريقة مستقلة، ويتمثل هذا التوحيد وهذه التجزئة في تقسيم التداولية إلى ثلاث درجات متتابعة، ويكون الانتقال من درجة إلى أخرى تطورا تدريجيا من مستوى لآخر، ولكن يجب الأخذ بعين الاعتبار عنصر السياق عند كل مستوى لأنه يتعقد كلما حدث هذا الانتقال. وعلى هذا الأساس تكون درجات التداولية كما يلي:

أ- تداولية من الدرجة الأولى:

وفيها تدرس البصمات التي تشير إلى عنصر الذاتية في الخطاب، فهي مجال لدراسة الأقوال والصيغ التي تتجلى مرجعيتها ودلالتها في سياق الحديث، وتعتبر أقوالا مبهمة إذا عزلت عن السياق، وتتناول هذه الدراسة نظريات الحديث، ويتلخص السياق في هذا النمط من التداولية في: المتخاطبين، الزمان، والمكان.

ب- تداولية من الدرجة الثانية:

وفيها يدرس الأسلوب الذي يرتبط فيه القول بقضية مطروحة، فتكون الأخيرة متباينة عن الدلالة الجانبية للقول، فتناول الدلالة هنا يكون من المستوى الصريح إلى المستوى التلميحي، والهدف هو استخراج العمليات المسببة في ذلك، أما السياق وفق هذا النمط فهو المعلومات والمعتقدات التي يشترك فيها المتخاطبون.

ج- تداولية من الدرجة الثالثة:

وهي ما يدخل ضمن نظريات أفعال الكلام، وهي تنطلق من اعتبار الأقوال الصادرة ضمن وضعيات محددة تتحول إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعية.

والسياق في هذا النمط تحدده عدة عوامل، منها الاجتماعية والفردية، ويعود ذلك إلى تدخل عناصر من سياقات الأنماط الأخرى، فهذا النمط لا يستقل من حيث السياق وطبيعته[8]، وهذا ما جعل الدارسين يؤكدون على أن الانتقال بين الدرجات يزيد من تعقيد السياق.

ولعل هذا ما جعل الباحثين يجمعون على أن البحث التداولي، وفي ظل ارتكازه على السياق، يقوم بالكشف عن أربعة عناصر تتمثل في: الإشارة، والافتراض المسبق، والاستلزام الحواري، وكذا الأفعال الكلامية، ويؤثر كل عنصر من هذه العناصر الأربعة في تحديد المعنى العام للنص الأدبي بشكل خاص لا يحققه العنصر الآخر، أو لنقل يحدد كل من هذه العناصر في توجيه دلالة النص الأدبي، أو تشكيل السياق العام للخطاب، ولتدقيق نتائج البحث وتقيدا بموضوع البحث، سنحاول الكشف عن العنصر الرابع المتمثل في الأفعال الكلامية، وسننظر في الآليات التي بها يتم تحديد وتوجيه دلالة النص الأدبي من خلال توظيف أفعال معينة، وسيتم ذلك بالاستعانة ببعض النماذج التطبيقية ما أمكن.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3-نظرية الأفعال الكلامية:

نشأت نظرية الأفعال الكلامية بين أحضان فلسفة اللغة، وذلك أن تراث فتجنشتاين لم يكتسب العناية الحقيقية إلا بعدما تبناه فلاسفة مدرسة أوكسفورد ولا سيما جون أوستين، الذي بدا أثر فتجنشتاين واضحا عليه، وتعد هذه النظرية النمط الثالث من التداولية، وكان أوستين يرى أن وظيفة اللغة الأساسية لا تنحصر في مجرد إيصال المعلومات والإفصاح عن الأفكار بقدر ما هي مؤسسة تحول ضمنها الأقوال التي تصدر وفق معطيات سياقية إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية، وقد عبرت أوركيوني عن ذلك فهي تعتبر الكلام هو بدون شك تبادل للمعلومات، لكنه أيضا تحقيق لأفعال ميسرة وفق مجموعة من القواعد من شأنها تغيير وضعية المتلقي ومنظومة معتقداته ووضعه السلوكي، وينجر عن ذلك أن فهم قول معين يعني التعريف بمحتواه الإخباري وتوجهه التداولي، أي قيمته وقوته الكلامية[9].

ولهذه الأهمية التي اكتستها الأفعال الكلامية منذ نشأتها فقد نالت عناية الباحثين في اختصاصات عديدة؛ فعلماء النفس يرون أن في اكتسابها شرطا أساسيا لاكتساب اللغة، ونقاد الأدب يرون فيها إضاءة لما تحمله النصوص من فروق دقيقة في استعمال اللغة وما تحدثه من تأثير على المتلقي، فيما يأمل الأنثروبولوجيون أن يجدوا فيها وسيلة لتفسير الطقوس والرقى السحرية، أما الفلاسفة فإنهم يرون فيها مجالا خصبا لدراسة علاقة اللغة بالعالم، ويسعى اللغويون من خلالها إيجاد حلول لكثير من مشكلات الدلالة والتراكيب، وتعليم اللغة الثانية، أما في التداولية فإن أفعال الكلام تظل أهم مجال فيها[10]، ومن هنا فإن الباحثين يعدون أوستين –صاحب نظرية الأفعال الكلامية- أبا للتداولية كلها.

وقد نشأت عند أوستين فكرة الأفعال الكلامية انطلاقا من تأمل الإخبارات وعلاقتها بالصدق أو الكذب، وذلك من خلفية انتقاده للرأي الذي يقر بوجود أقوال صحيحة نحويا لكنها لا تحمل دلالات منطقية، وأطلق عليه المغالطة الوصفية، وقد برر رأيه هذا بطرح إشكالية مفادها أنه إذا أقررنا أن الأقوال التي لا تحمل معنى لا يمكن وصفها بالصواب أو الخطأ، فكيف نصنف تلك الدالة على الاستفهام والأمر والنهي؟

فهو يرى أن بعضا من العبارات لا طائل من وصفها بالصدق أو الكذب، بل إنه حين النطق بها فإننا و ننشئ قولا بل نؤدي فعلا، فهي أفعال كلام، ومثال ذلك قوله تعالى على لسان زوجة زكريا عليه السلام: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران 36].

ولذلك ميز أوستين بين نوعين من الأقوال:

أ- أقوال تقريرية (إخبارية): وهو ما يقابل الأساليب الإخبارية، وهي أقوال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة، وهي كما عبر عنها عبد السلام هارون أن الكلام إن احتمل الصدق والكذب لذاته، بحيث يصح أن يقال لقائله إنه صادق أو كاذب، سمي كلاما خبريا، والمراد بالصادق ما طابقت نسبة الكلام فيه الواقع، وبالكاذب ما لم تطابق نسبة الكلام فيه الواقع[11].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ب- أقوال إنشائية (أدائية): لاتصف ولا تخبر ولا تمثل ولا هي خاضعة لمعيار التصويب، إنما ميزتها الأساسية أن التلفظ بها يساوي تحقيق فعل في الواقع، ويدخل ضمنها التسمية، والوصية، والاعتذار، والرهان، والنصح، والوعد.

فهذه الأقوال تحيل إلى فعل شيء ما بمجرد التلفظ بها، وهي مرتبطة بشروط نجاح معينة، ويقسمها أوستين إلى: شروط الملاءمة felicity conditions، وشروط قياسية regulative conditions، وهي لا تصف أعمالا بل هي أعمال في حد ذاتها.

وانطلاقا من هذا الاكتشاف، أكد سيرل فكرة مفادها أن العنصر الأساسي في التواصل الإنساني ليس مقطعا داخليا في اللغة (مثل الكلمة)، وإنما هو عمل القول أو إنشاء القول إنها ولادة لنظرية تجدد في العمق تحليل اللغة واللسان[12].

ومنه فقد ميز أوستين في مرحلة متقدمة من بحوثه بين ثلاثة أفعال: فعل الكلام؛ وهو نفسه الذي يعني النشاط اللغوي الصرف، ويدل على إنتاج قول ذي دلالة تخضع للتركيب. والفعل الإنشائي؛ والذي يدل على عمل ينم عن الحديث والذي يمارس قوة على المتخاطبين. وأخيرا الفعل التأثيري؛ ويدل على الحديث بوصفه قادرا على إحداث آثار ثانوية مترتبة عن الفعل الإنشائي، فلكل كلام أثر يمتد ليتجاوز اللحظة التي قيل فيها[13].

ففعل الكلام هو إنتاج هذه الجملة في حد ذاته، أما الفعل الإنشائي فيتمثل في التحذير أو التهديد، في حين أن الفعل التأثيري يتعلق في هذه الحال باستثارة الخوف أو العدوانية أو التصميم على المذاكرة.

4-تصنيف أفعال الكلام:

لما كانت أفعال الكلام كثيرة ومتشعبة في دلالاتها فقد قام أوستين بتصنيفها إلى مجموعات من أجل فهم وظائفها في الحديث، ، وقد وضعها أوستين في خمس مجموعات كما يلي[14]:

1- أفعال الأحكام verdictives: تتمثل في حكم يصدره قاضٍ أو حكم.

2- أفعال القرارات (الممارسة) exercitives: تتمثل في اتخاذ قرار بعينه، أو ممارسة الحق، كالإذن والطرد، أو الانتخاب والتعيين.

3- أفعال التعهد (الوعد) commessives: وفيها يتعهد المتكلم بفعل شيء، وتؤسس لديه إلزامية القيام بذلك الفعل، كالضمان، والرهان.

4- أفعال السلوك behavitives: وهي التي تكون رد فعل لحدث ما، وتولد فعلا اجتماعيا كالاعتذار، والشكر، والقسم.

5- أفعال العرض (الإيضاح) expositives: وتستخدم لإيضاح وجهة نظر أو بيان رأي عن طريق الحجاج، كالاعتراض، والتشكيك، والإثبات، والتأكيد.

وما يلاحظ في هذا التصنيف أنه – وباعتراف صاحبه ذاته- غير مستفيض، حيث أقر بأن هذه المجموعات متداخلة بينها، ويستلزم الأمر في أحيان كثيرة تدخل عنصر السياق من أجل تصنيف عبارة ما في واحد من هذه الأقسام، فلم يكن هذا العمل كافيا من أجل وضع نظرية متكاملة ومتماسكة للأفعال الكلامية. وخير دليل على ذلك أن سيرل - رفيق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أوستين- لم يقتنع بهذا العمل نظرا للغموض الذي اكتنفه في تحديده لهذه المجموعات فالفعل الكلامي عند سيرل أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، فهو مرتبط بالعرف اللغوب والاجتماعي، وقد لخص ذلك بمقولته المشهورة: Meaning is more than a matter of intention it is also a matter of convention[15].

ويضم تصنيف سيرل الأقسام التالية: أفعال الإثبات؛ وفيها يكون المتكلم مسؤولا عن وجود وضع للأشياء كالتأكيد والوصف، أفعال التوجيه؛ وغايتها حمل الشخص على القيام بشيء كالأمر والنهي، أفعال الوعد؛ غايتها إلزام المتكلم بالقيام بشيء، وهو نفس تحديد أوستين لها، الأفعال التعبيرية؛ وهي تعبير عن حالة نفسية كالاعتذار، والإعلانات؛ ويسعى المتكلم من خلالها إحداث تغيير عن طريق الإعلان باستعمال الأفعال الدالة على ذلك كالإعلام، الإخبار، والإعلان[16]. وبهذا العمل فقد مهّد سيرل لظهور نظرية أخرى في التداولية والنحو الوظيفي هي الاستلزام الحواري، وتكون هذه الأفعال في حالات خاصة من المحاورة كأن يقول أحد لصاحبه: هلاّ ترافقني غدا إلى السوق، فيقول الآخر: أنا ملتزم باجتماع عمل غدا.

5-نماذج تحليلية:

بعد هذا العرض النظري حول الأفعال الكلامية وكيفية تناولها ضمن الدرس التداولي، سيحاول البحث أن يسلط الضوء على الأثر الذي يكونه المتكلم عند استعماله لهذه الأفعال، ودورها في توجيه دلالة النص الأدبي من خلال نماذج سيقوم البحث بتحليلها، ولم أعمد إلى اختيار مدونة بعينها قصد التنويع وعدم التقيّد بنص واحد، وكذا من أجل ملاحظة آثار هذه الأفعال في عدد من النصوص.

فتناول الإطار التداولي للنص الأدبي من خلال أفعال الكلام، هو التطرق إلى ما أسماه سيرل بالقواعد التأسيسية التي تمثل شروطا تضمن نجاح المتكلم في تحقيقه للأفعال الكلامية بمجرد التلفظ بها، وهي تحدد بدقة العلاقات بين المتخاطبين، فقبل أن يصدر المتكلم أيّ كلام عليه أن يعرف منزلة المخاطب بالنسبة إليه، وما الغرض من الكلام الذي سيقوله، ومثل ذلك نجده في الحوار الذي دار بين الشاعر الفرنسي سيرانو دو بيرجراك ورجل من العامة، وكان سيرانو ذا أنف ضخم سبب له عقدة نفسية، جعلته ينتقم من كل من ينظر إلى أنفه نظرة ازدراء، وكان كل الناس يعلمون ذلك.

سيرانو: اخرج من هنا حالا أو حدثني ما لي أراك تنظر إلى أنفي هذه النظرة المريبة؟

الرجل (وهو يرتعد في مكانه): أنا يا سيدي؟

سيرانو: نعم أنت فما تراه غريبا فيه؟

الرجل: إنك واهم يا سيدي فإنني أقسم لك ما فكرت قط في شيء مما تقول.

سيرانو: أتراه رخوا متهدلا كخرطوم الفيل؟

الرجل: لا يا سيدي.

سيرانو: أو يتراءى لك أن الذباب يمشي منزلقا فوق تضاريسه؟

الرجل: لا يا سيدي لم يخطر ببالي شيء من ذلك وأقسم لك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سيرانو: أتراه أعجوبة من أعاجيب الدهر أو فلتة من فلتات الطبيعة؟[17]
الرجل: لا يا سيدي لا هذا و لا ذاك.

وهنا نلاحظ أن سيرانو يتجرأ على ذكر مساوئ أنفه لأنه يعلم أنه ما من أحد يستطيع أن يقوم بذلك – على الأقل في حضرته-، أما الرجل فلا يمكنه أن يوافقه على هذه الأوصاف، حتى وإن افترضنا أنه يقوم بذلك في قرارة نفسه، ولكن علنا يبعد ذلك عن نفسه خوفا من العقاب الذي يمكن أن يتعرض له، وحتى أنه في إجاباته يحتفظ بنمط واحد (لا يا سيدي) خوفا من التفوه بكلمات قد تزيد من هيجان سيرانو، ويؤكد على ذلك بأفعال القسم والتأكيد.

ومثال ذلك أيضا المحاورة التالية المقتبسة من مسرحية (حلاق بغداد) لألفريد فرج:
الوزير: هل يسر عالي المقام تصريف بعض الشؤون العاجلة؟
الملك: ليس هناك ما هو عاجل، حين يكون مزاجي غير معتدل.
الوزير: لا عكّر الله مزاج مولاي (مترددا) هناك إجراءات ربما يحسن أن نتداول في أمرها.
الملك: ميمون... دلك لي أصبعي[18].

فالملاحظ أن الملك لم يتحرج من رفضه الطلب الذي تقدم به الوزير لأنه يعلم أن مكانته تسمح له بذلك، لكن بالمقابل عندما أدرك الوزير ذلك –ومع أنه لم يسره الأمر- إلا أنه في رده كان يتخير الكلمات التي يخاطب بها الملك (عالي المقام، لا عكر الله مزاج مولاي)، فلو تجرأ على تجاوز وضعيته أصابه ما لا يحمد عقباه.

ولكن عند تغير مرتبة الأشخاص الاجتماعية والسياسية، يتغير بالضرورة نمط وأسلوب الحديث وصياغة أفعال الكلام، ففي نفس المسرحية عندما كان يتخفى الملك مع وزيره ليتعرفوا أحوال المملكة عن قرب، غيرت من طريقة مخاطبة محمود (الوزير) لمصطفى (الملك):
محمود: تريث يا حاج مصطفى.
وهذه الجملة ما كان الوزير ليسمح لنفسه أن يقولها للملك في الحالة العادية قط.

وقد يؤدي نص - مهما كان طوله- فعلا كلاميا واحدا ولو تعددت فيه الأفعال الكلامية، فهذا النوع من الأفعال الكلامية ذات قيمة كلامية شاملة، ونجد ذلك غالبا في النصوص التي تشير إلى مناسبات دينية أو عرفية، فقد تحوي هذه النصوص على أفعال الوعد والشكر والاعتذار وغيرها، ولكن توظيفها يكون خدمة الأفعال الشاملة، ويظهر ذلك في بعض الخطابات الخاصة كخطاب الشكر، ومثاله هذا المقطع المقتبس من مسرحية (أهل الكهف) لتوفيق الحكيم، الذي يعبر فيه "مرنوش" عن شكره لـ "مشلينا" على الخدمات التي قدمه له[19].

مرنوش: نعم. إني لست مثلك يسهل محو كل شيء طيب من ذاكرتي إني لا أستطيع أن أنسى يا مشلينا أنك الوحيد الذي عاونني في زواجي الخفي، ولازمني في كل ظروفي الحرجة التي مر بها تأسيس هذه الأسرة الخفية. إني لا أستطيع أن أنسى أنك كنت تفرش

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معي المنزل، وتحمل إلينا على ذراعيك ليلا الخضر والفاكهة، إذ كنا لا نأتمن خادما ولا عبدا على سرنا. ولا أنسى يوم ولد ابني أنك جعلت تحوك أثوابه الصغيرة وقلانسه بيدك قبيل نزوله إلى هذا العالم، اجل لولاك ما كنت أستطيع أن...[20]

فهذا النص بأكمله يحمل دلالة الشكر دون أن يرد فيه فعل واحد دال على ذلك صراحة، بل نجد فيه أفعالا أخرى كالتأكيد، وهنا السياق الذي أورد فيه هذا الخطاب والعلاقة بين المتكلم والمخاطب تجعلنا نصل إلى هذه الدلالة.

خاتمة:

كل ما سبق عرض بالتحليل لكيفية تناول النصوص الأدبية وفقا للمناهج اللسانية الحديثة، بالتطرق إلى مجال أوسع من لسانيات الجملة، وذلك بالتعرف على بعض الإجراءات التي تحدد الدلالة العامة لأي خطاب من خلال الدور الذي تلعبه العناصر النصية في ذلك، وآثرنا تناول الدور الذي تؤديه أفعال الكلام في بناء النص الأدبي، من نافذة المنهج التداولي الذي يعطي للسياق المنزلة التي تنبغي له في رسم الإطار العام للنص، وقد لمسنا ذلك من خلال النماذج التطبيقية التي عالجها البحث، فلم يغفل التحليل عن إبراز عنصر السياق كإجراء ضروري وأكيد من أجل الإحاطة بالمعنى العام لتلك المدونات. فخلص البحث إلى أن نظرية الأفعال الكلامية قد ساعدت بشكل كبير في الكشف عن دور بعض الأفعال في توجيه دلالة النصوص الأدبية وجهة خاصة ارتضاها منشئ الخطاب، وكيف يمكنه أن يجعل المخاطب يؤوله كما شاء هو.

الهوامش:

[1] Yule; G: the study of language, Cambridge University Press; 1987, P 97.
[2] محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، 2002م، ص 9.
[3] عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص 8.
[4] C.K. ORCCHIONI, Enonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin, Paris, 1980, P185.
[5] محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص 15.
[6] عمر بلخير، المرجع السابق، ص 9.
[7] J.DUBOIS, dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris, 2eme édition, P 56.
[8] عمر بلخير، المرجع نفسه، ص 12-13.
[9] C.K. ORCCHIONI, Ibid, P185.
[10] محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص 41.
[11] عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1981، ص 13.
[12] فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر صابر الحباشة، دار الحوار، سورية، ط1، 2007، ص 55.
[13] John L. AUSTIN, Ibid, P 153-166.
[14] ينظر : محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص 46. و عمر بلخير، المرجع السابق، ص 158.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[15] محمود أحمد نحلة، نفسه، ص 47.
[16] عمر بلخير، نفسه، ص 160.
[17] إدمون روستان، الشاعر، تر مصطفى لطفي المنفلوطي، دار صالح، الجزائر، ص 44.
[18] ألفريد فرج، حلاق بغداد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 95-96.
[19] قدم الدكتور عمر بلخير دراسة تداولية مستفيضة حول مسرحيتي "حلاق بغداد"، و"أهل الكهف" ضمن كتابه (تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، وقد استفاد هذا البحث كثيرا من هذا الكتاب.
[20] توفيق الحكيم، أهل الكهف، الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1978، ص 20.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com